الخِضر

يجدِل الحِبال كل عشية ويحرس قضبان القطار. عشرون عامًا يقرفص بين الحبال والمقاطف، يكتّفها، يلاعبها، ويغيّر من صورتها. من ليف نخلة عالية إلى خلخال في قدم بهيمة، ومقطف يسبّخ الأرض ويحُشُّ ثمرات الكرنب. يقطف قرون الفول والفاصوليا أو يصنع من سباطة النخل مقشة. في ورديته يمر القطار ثلاثًا. المرة الأخيرة عادة توقظ أعواد الذرة من غفوتها، وتهيّج صراصير الحقول والثعالب، فيشعل النار في القوالح المرصوصة على شكل بيت في منتصف الموقد، ويزيد وهيجها بغلافتين، وأقضاب الأشجار التي قلمتها امرأته الهزيلة، التي تأتي بالغداء كل مغربية، مع طشت من الماء، تملؤه ابنتها انتصار من ماء مِعْين، لتكبه في الزير.

لا يعرف لِمَ تحب امرأته تقليم الأغصان، وتحزيمها بأوراق الموز المبلولة من ماء الترعة، رغم بخس الثمن. الناس تفضّل القوالح وشكائر الفحم.

ربما عليها الاكتفاء ببيع البلح التي تجلبه من الصعيد قبل رمضان، وخبز الفائش والعيش الشمسي لأهل البلدة. لكنها لا تبلُّ ريقه أبدًا عندما يطلب منها ذلك، وحجتها شِوار البنات: انتصار، وفاطمة. وسمر.

على مقربة من النهر، داخل كشك من الطوب الأحمر، محّره بكفٍّ، ولطس ألواح السقف وهذّبها، ومع ذلك فهي مليئة بالهباب والناموس، يجلس شِبْل على شوال يجدل الحِبال. قبل الثالثة يخرج من الكشك، يتجول بين الأشجار والمشاتل المتناثرة حول المزلقان. يتفقد بضوء الكشاف أشجار النخيل الملوكي وعمة القاضي وينتظر تسبيح الكروان، وتبدأ مواويل الضفادع، تنادي على نبيها الخِضر، وتبتهل مع أذان الفجر حتى يعود إلى الأرض التي خرج منها. وقد تأتي نساء القرية وبناتها لتلحس جلد الضفادع فتفك عقدة اللسان وتعلو الزغاريد بالفرح والسحر. أما الأطفال فيرون إذا ما لمسوا جلدها مقاعدهم في الجنة أو في النار.

مع غروب الشمس تبدأ ورديته، بنسمة خفيفة تخبره بموعد مرور القطار. فيغلق المزلقان ويتفقد وجوه المسافرين، يلوّح لهم فيردون التحية. الوجوه تتكرر مع كل قطار، كأنها في سفر دائم، سوَّاحون في الأرض، لا محطة في انتظارهم. في كل مرة يمر فيها القطار يبحث عن النافذة التي يطل منها. عندما يهبط الليل، قبل عودة القطار، يتجول بين المشاتل، ليصل إلى عمودي الإنارة الوحيدين إلى البلدة. لا يهتم أحد بغرس العمدان هنا، ولا يحتاج الضوء النطّاطون وأصحاب الكيف والراغبون في الخلفة؛ الذين

يلقون نســاءهم أمام القطارات، فالموت حين يفزع أحدًا يقطع الخلفة أو يمد حبالها، ولله في أمره شـؤون. لم يصادف في الطريق أحدًا، ولم يســمع صوتًــا يعلو على صوت الضفادع. إلا امــرأة تلهث بين الحقول، وتصرخ بشــدة كل حين. حاول أن يتتبع الصوت، غرز بين الحقول المروية، إلى أن وصل عند خيط دم يبقِّع عيدان الذرة. سمع بعدها صريخ طفل، ووجد لفة من القماش مليئة بالدم، وسكينًا صغيرًا. ثم جاء القطار. سمع البوق الغاضب فجرى عائدًا إلى الكشك. ركض بين شتلات الصبار، تعثر بها، تمزق جلبابه القصير. وصل أخيرًا وأغلق المزلقان. ومن أمام الكشك رأى ظل امرأة تلقي بوليدها على القضبان. صرخت بعدها، وصرخ، وصرخ القطــار أيضًا قبل أن يمضي في طريقه ويحل الســكون. تسـمر للحظات. جلس على الدكة متعبًا. مشى بخطى مرتعشة نحو القضبان. كانت صلبة وســاخنة، بــلا بقع. خمـن أن المرأة لم تلــقَ بوليدها – رغــم عارها – ربما منعتها أمومتها.

نظف الكشك من الأحبال والمقاطف. نفض التراب عن سريره، طقطق الناموس بالمضرب، استلقى على الفراش. شرد في ألواح السقف ولم يلاحظ بقــع الدم على جلده المخضر. انزلقت قطرة إلى أنفه فاستنشــقها وكاد أن يبتلعها. قفز على الأرض منتفضًا. نفَّ وبصق وتمضمض بماء الزير. غسل وجهه وذراعيه ثم التقط المطوة والكشاف وهرع إلى الخارج. أين الدم، من أين جاء، أضاء بالكشاف شرق الكشك وغربه، وغدا يفتش في كل مكان،

إلى أن وجد على مقربة من النافذة ذراعًا مبتورة، كانت لا تزال ممخضة بدم الخلاص. ارتعش عندما أمسكها، ووضعها في شوال من الخيش. سار بظهر محني يجمع أشلاء الوليد، يشمُ الأرض ويتلو الأذكار بصوت مرتعش. وجد حبل سرة مربوط بفتيل من الصوف. وقرر الذهاب إلى النهر.

حفر الأرض بالكريك، بذراعين واهنتين، لا تقويان على حمل رفات النهر. كان يرص أجزاء الوليد برفق، بينما تغسلها قطرات العرق والضفادع تشيعها بالتراتيل. أهال التراب عليه. من سيحمل دم الوليد، أمام الله، وأمام الحكومة؟ حمد الليل في سره كثيرًا، ولم ير الأعين التي تراقبه من بين الحقول. أعين سوداء بهالات بنية، تدور حوله وتتبعه، تنق في أذنيه، تلهث وراءه. تحاول أن تلمس جسده. الآن شعر بها. فر إلى الكشك، أغلق الباب جيدًا. زحزح الفراش وأشولة البلح وراءه.

كان جلده يخضر مع الوقت، يزحف إلى قدميه ورقبته. رأى ذلك فرفع الزير وكبه على نفسه، امتد الماء وبلل كل شيء: الأحبال والمقاطف وشكائر البلح المرصوصة فوق بعضها وراء الباب. خرج إلى العتبة. سمع أفواهًا ترتشف من ماء الزير، جلس في الركن يقرأ آية الكرسي. بلل ريقه بالأدعية الحافظة من شر كل شيطان وهامَّة، أو إنسان. لكنَّ صوتَه يعرضّ، وقدميه تنشران. كل شيء في الحجرة يتغير، مروحة الحائط بدت كثعبان ملتف حول ثلاث بومات، تحدقن فيه. والأحبال تشكلت على هيئة مسخ، صنع مشنقة ورماها في وجهه، حملها الناموس العملاق وألقاها حول رقبته. ارتجف،

تمتم الصلوات وسمع صراخ الوليد.

صوت الوليد بوق، أعاد الأشـياء إلى سـيرتها الأولى. مسـخ الأحبال تكـوم في الركن، والمروحة تلف وتئن بصوت مزعج. مشـى إلى النافذة. ألقى نظرة. دار حول الكشك والمشاتل والطريق، صرخ: يا أيها الصوت من أين؟ من الجهات الأربع، من السماء، ومن أسفل الأرض. سيعود إلى النيل ويشاهد جسد الوليد، رغم ثعالب الحقل التي تطل بأعينها. يظنها ثعالب ولم تكن كذلك. أعين سوداء واسعة بحَلْقٍ كبير، تنتظره وراء النهر. تهمس "تعال. عد إلينا". يصل عند النهر وينبش التراب بيدين متقوستين، ولا يجده بالأسفل. يسمع الهمسات ويدرك الأعين، يخرج أصحابها من الحقول فـيرى حقيقتها. لم تكن بشرية تمامًا، لها قامات البشر وأجسـاد الضفادع، وكانت تقف بحزن كأنها تشيع الوليد أو تشهد نبش القبر. ضفدع يرتدي بدلة، وآخر يرتدي جلبابًا، وواحدة ترتدي فستانًا أنيقًا من الحرير. ضفدع يمسك منجلًا في يده، ويبدو غاضبًا بشده. يفر شبل من أمامهم وتطارده الضفـادع جميعًا. لماذا تفعل ذلك؟ لماذا أخـذوه؟ وإلى أين؟ تعثر. وقعت طاقيته. تركها لهم. التفوا حولها ثم وقعت منهم فتشـاجروا عليها. وصل شـبل إلى الكشك. لهث. اسـتلقى على الفراش. وضع المخدة على رأسه. حاول الهرب بالنوم، وبأذكار النقشبندي .

صحا في الصباح بنصف عين عـلى صوت ابنته فاطمة وقد أحضرت الإفطـار. كانت على غير عادتها حزينـة، تعجن الهم وتخبزه كأمها. عندما

دخلت إلى الغرفة رأت كل شيء على حطة يدها، ما عدا ماء الزير وجلده المخضر. سألت أباها عن الأمر فانتفض، خرج حافيًا معمصًا إلى القضبان. يتفقد كل شيءٍ: النافذة نظيفة، القضبان نظيفة، والحياة تدب في البلدة. يسمع صوت فاطمة من ورائه "لماذا لا تعود إلى البيت يا أبي؟ عشرون عامًا بأكملها وأنت تنتظر القطار، تلوح للغرباء. ماذا تنتظر؟". عشرون عامًا قضاها بين القضبان والنيل، ينتهي من الوردية فلا تأخذه قدماه للبيت. يذهب إلى النيل، يلقي الحصى الصغيرة ويراقبها تقفز حتى تغرق. كاد أن ينسى طريق العودة، نقطة البدء ماذا كانت؟ لماذا جاء هنا؟ لماذا تركوا بلدتهم القديمة؟ تابع السير غائمًا وفاطمة تقول "تحكي لنا أمنا عن الخضر، تقول كان نبيًّا، كان يشبهك. لا بالحي ولا بالميت، يزور الغيط والحقول، يتحسس البيوت الطينية. في سفر دائم بين أزمان الله، مشتت في البلاد، وقدماه متورمتان من طول المسير. لا نخبرها بالحقيقة. نتركها تخرج صوره لنا، في الابتدائية، والإعدادية، قبل أن يقفز في القطار". لن يستمع إلى وسوستها. يعنفها ويأمرها بالعودة إلى البيت، والقطار يفرم كل شيء. يعود سريعًا إلى الكشك. يقرر الرجوع إلى الدخان. يخرج الجوزة القديمة من أسفل الكراكيب. يغسلها جيدًا وبعدها يتجول بين الحقول حتى أشجار البوص ويقطع الكثير منها، يهذبها بالسكين. يذهب ليشتري المعسل القص ويعود مرة أخرى إلى الكشك، بعد أن مر القطار – دون وجوده– بغير سوء.

وجد بانتظاره ثلاثة مفتشين، يجلسون على الدكة ويرتشفون الشاي.

لم يتركوا له مساحة للتحدث، وتبرير غيابه عن المزلقان في ورديته الثانية. أخبروه أنه تم تسريحه لسوء السير والسلوك. قالوا "يا شبل. نعرف الأشياء التي تدور في رأسك". حاول الدفاع عن نفسه، أخبرهم عن سنين مرت دون حادثة. أقسم بحياة الخضر فكذبوه. أخبروه أنهم يعرفون ما دار في الليل، وأخرجوا أشلاء الوليد. عين مفقوعة وذراع مبتورة وحبل سرة مربوط. نظر إليهم مبهوتًا. أخبروه عن الضفادع التي تنتظره. سألهم "أية ضفادع؟"، هاج فيهم. رمى الجوزة في وجوههم. تمزق جلدهم المزيف. بدوا على حقيقتهم تمامًا. مفتشون مزيفون. ضفادع لا أكثر. دخل في معركة معهم على القضبان، ورأى القطار آتيًا من بعيد. كان المسافرون على هيئة ضفادع أيضًا. توقفت المشاجرة. لوح لهم شبل مع المشرفين. هدؤوا لحظة قبل أن يتابعوا القتال. وقع على الأرض. مزقوا جلده بأظافرهم. أطلق صوت نقيق غاضب. صار أخضر مثلهم. قفز على أربع هاربًا حتى وصل إلى النيل. هناك كانت الأغنيات تنتظره.